الثيمات الاجتماعية في الرواية النسوية: قراءة سوسيولوجية. في رواية وبر الأحصنة لنجوى بن شتوان إنموذجا.

أ ـ رقية محمد سعيد

ملخص البحث:

يتنزّل هذا البحث ضمن محور "دور الأدب في تنمية المجتمع". وقد وضعنا له عنوانا هو: " **الثيمات الاجتماعية في الرواية النسوية: قراءة سوسيولوجية في رواية وبر الأحصنة لنجوى بن شتوان أنموذجاً**. أدرناه على مجموعة عتبات، كلّ منها مخصّصة للنظر في مسألة معيّنة.

انطلقنا في مستهله، أي العتبة الأولى، بلمحة حول مصطلحين متجاورين هما: "الكتابة النسائية والنسوية". وهي خطوة منهجيّة ضرورية للفصل بين هذين المفهومين المتجاورين والمتلازمين. تليها خطوة أخرى مدارها على توضيح خصوصية الكتابة النسوية في الأدب العربي عامة والأدب الليبي خاصة.

أما العتبة الثانية بعنوان "**منهج النقد السوسيولوجي**"، فقد عرضنا فيها ماهية هذا المنهج في النقد وفي فن الرواية تحديداً، ومن ثم انتقالنا إلى عتبة "**ملخص الرواية**" التي طرحنا فيها مضمون الرواية من شخوص وأزمنة وأمكنة وقضايا اجتماعية.

وفي العتبة الرابعة "الثيمات المهيمنة على الخطاب"، اختزلنا فيها أهم المعضلات الاجتماعية في النص التي طرحتها الكاتبة بخطاب مفعم بالرفض والتمرد.

أما العتبة قبل الأخيرة جاءت تحت ثيمة "**المرأة كائن بلا كينونة**" فقد عرضنا فيها قمع كينونة المرأة كما جاء في النص حسب نظام هرمية السلطة المترسبة في العقول التي تسير وفق نظام علاقة بين أعلى وأسفل، وعلاقة بين ذات وشيء.

وفي الخاتمة عرضنا ما توصل إليه البحث حول الرواية كفن أدبي وقدرته على إماطة اللثام عن الواقع، ومن ثم الهدف من وراء الخطاب والقضايا المكتنزة في لبّ النص وفاعليتها المرجوة في التغير.

مقدمة:

بداية وقبل الولوج إلى البحث علينا بالتفريق بين مصطلحي(الكتابة النسائية ـ والكتابة النسوية) في الأدب والسرد خاصة؛ لأنه كثيراً ما يحصل خلط بينهما في حين أن الأول يتمحور حول القصص والروايات التي تكتبها النساء تحديداً دون أن تتضمن رؤى

خاصة بالمرأة وقضاياها، أما المصطلح الثاني فإنه يشير إلى المضمون الذي يكتنز بوجهات نظر نسوية خالصة، أو رؤى نسوية للعالم، وبهذا تكون الرواية النسوية سرداً نابعاً من ذات مؤنثة معبرة على قضاياها الملّحة في ذاتها وليست من ذات الآخر

ولقد أسهمت الرواية النسوية منذ نشأتها حتى أيّامنا هذه في معالجة القضايا الإنسانية وفي كشف مختلف الحقائق، ومن خصائصها الرفض والتمرد على كل السلطات القامعة لذات المرأة، كما جابهت كلّ من يحاول إقصاءها وإبعادها عن المشهد وأسهمت كذلك في تعرية المسكوت عنه في الحياة بتجلٍ وإفراط. وهذا ما تؤكده الناقدة **يمنى العيد** عندما وصفت خصوصية الكتابة النسوية العربية إذ تقول: " للكتابة النسويّة خصوصية طبيعية ثابتة، بل هي ظاهرة تجد أساسها في الواقع الاجتماعي التاريخي الذي عاشته المرأة [1].

يذكرنا هذا القول بالرائدات في الكتابة والسرد بشكل خاص مثل **هدى الشعراوي** التي اعتبرت نصيرة المرأة ورائدة النهضة النسائية، **ونوال السعداوي** المتمردة على الراكد والمألوف والسلطة البطريركية القامعة، وكذلك **غادة السمان** المناهضة لقيم مجتمع العصبية، **وأحلام مستغانمي** التي رسخت تاريخ الشعب الجزائري المناضل ضد الاستعمار، وكذلك مناهضتها لقضية الإرهاب والواقع المتردي وغيرهن الكثير.

ولم تكن الرواية النسوية في ليبيا بمعزل عن مشاغل مثيلاتها في العالم العربي، فهي تسير ضمن هذا الفلك دون أن تفقد خصوصيها المحلية بطبيعة الحال، وقد برزت إرهاصاتها الأولى في منتصف القرن الماضي واستقرّت ملامحها في سبعينياته. وكان لها الدور الفعال في المعالجة والإصلاح مع الرائدات في هذا الجنس كـ**"مرضية النعاس، وشريفة القيادي، وفوزية شلابي، ونادرة العويتي"** اللائي وجدن صرح الرواية صدراً رحباً لاحتواء معاناتهن من نظام البطريركية، واستطعن نقل صورة المجتمع بكل تناقضاته وكذلك تأخره وتطوره[2]. واستمرّ عطاء الكاتبات الليبيّات إلى أيّامنا هذه دون توقّف.

برزت مؤخّرا الكاتبة **نجوى بن شتوان** التي صدر لها العديد من المجاميع القصصية والروايات منها "وبر الأحصنة، ومضمون برتقالي، والملكة، والجدة صالحة"، وأخيراً "زائب العبيد" في2016. وقد حازت على الكثير من الجوائز، ووصلت إلى القائمة القصيرة لجائزة البوكر في 2017.

وسوف نتوقّف عند رواية وبر الأحصنة التي تعد الرواية البِكر للكاتبة التي صدرت في 2005 وقد اخترناها كمحور دراستنا؛ لأنّها تحتوي على نفس الثيمات التي تعبر عن أزمة المرأة المتمثّلة في القمع والاستلاب. ونتوسّل في ذلك بمنهج النقد

السوسيولوجي للكشف عن مدى ارتباط الفنّ الروائي النسوي بالمجتمع والواقع. والاستئناس بهذا المنهج لا يعني تطبيق مقولاته حرفيّا وإنما هو منفذ نطلّ من خلاله على ثيمات النصّ دون أن نسقط في التتبع الأعمى لمقولات نشأ أغلبها في ثقافات أخرى واشتقّت من نصوص غير عربيّة في الأساس.

منهج النقد السوسيولوجي:

بداية نود الإشارة إلى أن الأدب ككل نشاط اجتماعي ووثيق الصلة بالمجتمع؛ لأنه يعكس كل العلاقات والصراعات الشائكة بين الإنسان والطبيعة والكون، وصراع الإنسان داخل محيط اجتماعي بعينه. وهو ما يبرّر اعتمادنا على المنهج السوسيولوجي.

أما سوسيولوجية الرواية فهي تبحث عن فاعلية المبدع والنص والمتلقي معاً، وكذلك طبيعة البيئة التي انتجته؛ لأن النقد من ناحية رؤية العالم أو الواقع الاجتماعي. المنهج المذكور ما هو إلا امتداد لنظرية الانعكاس اليونانية. إذ يرى منظّروه أنّ الكاتب الخّلاق ابن بيئته، يتفاعل مع قضايا مجتمعه، ويكتب عن كل ما يحدث فيه، ويحدث له. هذا ما أكده **لوسيان غولدمان رائد المنهج السوسيولوجي** في قوله:" إن الأدب إنتاج، فردي، لا يعامل باعتباره تعبيراً عن وجهة نظر شخصية، بل تعبير عن الوعي الطبقي للفئات، والمجتمعات المختلفة، بمعنى أن الأديب عندما يكتب فإنه يعبر عن وجهة نظر تتجسد فيها عمليات الوعي، والضمير الاجتماعي، فجودة الأديب، إقبال القرّاء إلى أدبه بسبب قوته في تجسيد المنظور الجماعي، ووعيه الحقيقي بحاجات المجتمع، فيجد القارئ ذاته، وأحلامه ووعيه بالأشياء"[3]، وهنا يمكن القول إن المنهج السوسيولوجي يركز على الإبداع الفردي للمؤلف الذي يعد بطبيعة الحال جزءاً من الإبداع الجماعي، وإمكانية اختراق العالم المحيط من خلال الإبداع الأدبي والفني؛ ولأن الرواية ممتدة الزمان والمكان وتبحث عن القضايا الوجودية وقضايا الإقصاء والقمع والفقر والجهل وتبحث عن الذات والآخر كان لها نصيب أكبر بين الأجناس الأخرى في احتضان هذا النقد في حقلها.

ملخص الرواية:

وبر الأحصنة (نصوص في التكوين والنشأة) نص يتكون من مجموعة قصص متلاحمة من حيث الثيمات رغم اختلاف الأزمنة والأمكنة. فالقصص تدور في حيّز واسع بدءاً من نشأة الكون حتى العصر الحديث والمعاصر. وفيها أبعاد تاريخية سوسيولوجية وسيكولوجية وايديولوجية عديدة. تارة نجد القص في حالة تسلسل وتارة أخرى نجده

كعقدٍ فُرطت حباته وعلى القارئ محاولة تجميعه كي يستوعب المقصود الذي ترمي إليه الكاتبة.

ينقسم المتن إلى مجموعة عتبات جاء في استهلاله عنوان(**مستخرج رسمي من سجل واقعة ولادة رب العائلة**) تقص فيها البداية والأزل والمهد للكون والخلق عن أول قصة في تاريخ البشرية بين الذكر والأنثى (**آدم وحواء**) رصدت قصتهما في المتخيل السردي وحاولت من خلال السرد والوصف سبر تفاصيل زواجهما وطقوس عرسهما المتعارف عليها في عادات وتقاليد المجتمع الليبي، ولكن الاختلاف أن حواء وآدم يتيمان وحيدان أغرب في كون شاسع، وتتساءل الكاتبة وتمضي كيف كانت حواء يوم عرسها؟ من انتظرها؟ من زينها؟ (من من من ..... ؟) وبهذا نجدها تطرقت لتساؤلات ذكية وجريئة في آن واحد لم تخطر في بال أحد، ولو افترضنا جدلاً أنها خطرت ببال أحد لم يطرحها عنوة وعلى الملأ كما فعلت بن شتوان.

تقول: " **ما نوع السيارة التي زفت العروسين..؟ من تلقى التبريكات بمناسبة عذرية العروس والعريس، وأيضاً. بما أنه لم يعرف امرأة قبل حواء وبعدها..؟**

من زمر وصفّر وصفق..؟

من تباكى ليلتها.. ؟"[4]

بعد ذلك تمضي الكاتبة بسرعة للحظة المخاض التي تلي الوهن ومعاناة آدم حينها في الكون وحيداً لا يوجد أطباء في المستشفى لتسهيل ولادة حواء أثناء الطلق القوي، تنجب حواء بخير، ومن ثم تمضي في توضيح حياتهما وكيف أصبحت لحواء عائلة والتفكير والإنجاب ثانيةً، ثم يتعاقب السرد سريعاً حتى نصل مرحلة زواج الذكر والأنثى الأولين لترصد من خلالهما كل المتغيرات وكيف أصبح للحياة شكل آخر مكتظ بالهموم والأزمات، ومع مرور عجلة الزمن الذي يصبح أكثر سوءاً عندما يحسد الأخ أخاه وبذلك تستخدم التداعي على الحدث حتى تفهم أن تقرأ عن أول خطيئة في الكون ألا وهى قصة (**هابيل و قابيل**) من هنا أصبح التلاقح والتناسل والتكاثر للشر واستفحال الظلم، واستشهاد المساواة، وهكذا نتابع الحدث داخل النص ونستبطن مراحل التاريخ إذا في نافلة العتبة الأولى تصل إلى حقبة قوانين مجتمعات العصبية التي تشتري الإنسان وتسبي النساء، وهيمنة السلطة الاجتماعية على المشهد منذ ذلك الحين.

العتبة الثانية جاءت تحت عنوان (**حاء من نسل حمد**)، استحضرت فيها عصور الظلام الممتدة والقابعة في الذوات (تناسل حواء الخاضعة في استكانة تامة لقدرها)، لا نجد شخوصاً هنا، بل نجد أمة بحالها تآمرت على الأنثى أو بالأحرى الهزيمة التاريخية

للجنس المؤنث في ذاك العصر من وأدها ودسها في التراب. فالكاتبة لا تكتفي بملاحقة جرائم ذاك العصر، بل وصلته بالعصر الذي يليه، أي كيف شُرّع سبيها وبيعها بسعر بخس؟.

وفي العتبة الثالثة (**سين من نسل حمد**) أو بالأحرى تناسل الهيمنة الذكورية، هذا الجزء تستهله الكاتبة بحدث أول طوفان جرى على الأرض، في قصّة النبيّ نوح. المهم فيه أنه لا تزال حواء هاجسها الوحيد المهيمن على النص التي لقبتها ب(احويوة)، ويمضي التعاقب بسرعة أثناء السرد بين المراحل التاريخية التي لا تخلو من الفجوات الزمنية، ونتابع السرد الذي صورت فيه كيف تم استبدال احويوة ببقرة؟، ومن ثم نقف على شخوص تلهث فوق فضاء جغرافي مفتوح بداية (حواء وحمد) الذي دخل بلاد الروم واختفى ونجت هي وجنينها من الطوفان وتنجب حسيناً وهى لا تزال طفلة لا تتجاوز العشرين ربيعاً يزوجها والدها قبل أن يعي حسين أنها أمه، تمضي القصة التي تصور استلاب الأنثى رويداً رويداً حتى نجد أنفسنا في القرن الثامن عشر الذي تستدعيه الكاتبة بالأحداث البارزة في حياة المجتمع الليبي آنذاك.

أما العتبة الرابعة جاءت بعنوان (**المعبر**)، تبحث الكاتبة عن الحقيقة في المعبر الذي قفزت فيه أحداث الرواية للعصر الحديث، هنا فقط يستقيم القص على راوٍ واحد هو الفكرة من العلقة إلى النطفة وما بعدها من مراحل تكوين الجنين في الأرحام، نتابع الراوي يقف هناك على عتبة اللامنظور يسرد حال واقعنا المنظور والملموس يرى إلى قوم سيولج إليهم ويعيش معهم، ويتساءل متى سيلتقي أبوه وأمه كي يتزوجا؟، ومن خلال صوته في النص نفهم بأنه شخصية ليست متكاملة من دم ولحم، إنما هو خيال أو فكرة. تقول: " **كانت المرحلة الأولى قاسية جداً، وهي كيف أجيء من ظهر الرجل المشغول دائماً بتحميل البلوك والطوب؟**"[5] هكذا تتأرجح الكاتبة بين عالمين غير متكافئين هما: الغيب، والواقع تسبر أغوارهما معاً: "**كان الرجل الذي أجيء من صلبه نملة في جمهور النمل الذين يشيدون تلك الطريق... لقد انتظرته طويلاً لكي يتفرغ لي وينجبني حتى قبل انتهاء مشروع الطريق**"[6] هكذا تجوب الأفكار ذاك الذي سيصبح جنين طفلة بعد حين ترى أباها وأمها من هناك في انتظار الالتقاء البيولوجي وتنتظر متى سيتم تلقيح البويضة التي ستخلق منها؟، ولكن الكاتبة تذهب من ذاك المعبر لتمرير القضية وكيفية المعالجة على أرض الواقع بخطاب مفعم بالرفض والتمرد على سلطات شرعت قانونا لتهميش وازدراء كائن المرأة، لهذا يرى الراوي الذي ستكون جنيناً أن أمه انتهك حقها على جغرافية الواقع واستعبدها أهلها لتشتغل كخادمة في زراعة الأرض، وأنه لا توجد

رحمة أو إنصاف لها يلوح في الأفق، وأخيراً يقفل عتبة المعبر بقضية التمايز في المجتمعات النامية.

أما (**فضاء السلسول**) فيه تسلسل للقص السابق يستكمل به الجنين مغامرته بعد نزوله الرحم ودخوله في مرحلة التشكيل، وإذ يقحم شخصية رجل داخل القصة لا نعلم على ماضيه شيئاً سوى اسمه (**مراجع**) الذي يفكر في الزواج لينجب أطفالاً ويحقق الاستقرار، ولكن سرعان ما يجعله شخصاً عابراً في النص، ولكي ننتبه للتاريخ بعد شوط الاستباق للزمن في قصة (**المعبر**) هنا يركز على الاسترجاع فالجنين لم يستبق حال أهل الدنيا فقط، بل استرجع ـ أيضاً ـ حال من رحلوا مبكراً هم أهل الآخرة فيقول التقيت بالجد العشرين حتى الجد الحادي عشر، الذي قتل ابنته والآخر زوجها قاصرة، أما الأخير مازال يراها همّاً وعاراً، ويجزم الراوي بأنهم سينزلون من الأرحام للحياة الدنيا مرة أخرى كإسقاط أن فعلهم وجهلهم والمورث سيكون سرمدياً.

ومن ثم تقحم قصة نشوء الإنسان وذلك بالإشارة لنظرية(النشوء والارتقاء) لدارون.

وأخيراً عتبة (**وبر الأحصنة**) التي أخذت أكبر مساحة سردية داخل المتن، ونتساءل ما علاقته بالمتن الروائي؟ فعندما تقرأ العنوان تفكر للوهلة الأولى بالحصان ككائن . ولكن عند سبر الأغوار العميقة في النص تجد نفسك أمام **كسر توقع** لتفهم معنى آخر لوبر الأحصنة " **ذهبت الوالدة صبيحة حلم ابنتها تفتش في الخلاء عن عشبة لها وبر ولا تأكلها إلا الأحصنة، لكي تضعها في النار وتبخر بها الدار مما رأت عويشة"**[7]، هنا تتصدر البطلة (عويشة) كأحد أبطال الرواية التي رأت في منامها حلماً مفزعاً لهذا قالت لها والدتها عندما قصت عليها الحلم" **عبرت الوالدة لطفلتها عن خشيتها مما سيأتي به الغيب لها:**

مكبر همك يا بنتي !!"[8] من خلال الحلم والحديث الذي دار بينهما نفهم أن وبر الأحصنة هي عبارة عن نبته تأخذ شكل الوبر ولا تأكلها إلا الأحصنة هذه النبتة تضعها النساء كبخور؛ لأن حسب اعتقادهنّ قادرة على تخليصهنّ من المحتوم أو الأشياء المفزعة، ويستكمل الراوي الجنين الذي سنتعرف عليه لاحقاً أنه يمكث في رحم عويشة بعد زواجها، وتدور الأحداث حول جزئيات حياتها بإسهاب لنعرف الأذى الذي لحق بها وهي طفلة وتزوجت وهي قاصرة ثم تصبح كآلة للتناسل ويسجل معاناتها من قسوة رجل لا رحمة في قلبه، بل يذهب الراوي لأبعد من ذلك يرصد مشاعر خوفها من هاجس أن يكون في رحمها أنثى؛ لأنها ستعاقب من زوجها والمجتمع معاً، وهكذا تقرر الكاتبة معتمدةً رصد وتوثيق صورة الامتهان والعنف على الجسد الأنثوي، كل هذه الأحداث

يرويها الجنين عن حياة حاملته لتعود بنا الذاكرة لنعرف لماذا خافت الأم من حلم عويشة التي ينتهي النص بموتها وذلك بسبب زوجها الذي رفض أن تولد في المستشفى بحجة لا يكشف طبيب أجنبي على زوجته ويعود بها للبيت ويطلب من القابلة هي التي تولدها .

الثيمات المهيمنة على الخطاب:

الخطاب الروائيّ في وبر الأحصنة جعل من مهمّة الكتابة إيصال صوت المهمشين في الماضي والحاضر والمستقبل. نكتشف هذا في الميتا سرد، فالروائية استطاعت أن تخترق التمايز بشتى أنواعه، كاشفة بيئة ترعرعت على الإقصاء. وهو عمل لا يقدر يتصدّى له إلا العبقري أو العالم أو الروائي الذي يعتبر بمثابة الجندي المجهول، فالكاتبة تخاطب الجميع بلغة قوم منذ جذوره الأولى إلى اليوم يسعى لإخمادها وقتل فاعليتها بشتى الوسائل، فاللغة نفسها في نظرها تعلي من شأن الرجل لأنها؛ " إفرازات مجتمع العصبية، مجتمع البنية الأولية التناسلية، إذ نجد أثر صياغتها في المفردة أو التركيب اللغوي(..) هذا الإعلاء نتج عنه الانحياز الذكوري في اللغة، ففي اللغة العربية مثلاً(...) عند مخاطبتنا لمئات النساء بإضافة نون النسوة، وحين يكنّ مع رجل واحد فخاطبنا لهن بواو الجماعة، حيث لا يجوز مخاطبتهن بنونهن لوجود رجل بينهن"[9]، وكي لا نذهب بعيداً عن(وبر الأحصنة) وثيماتها الكثيرة بداية ما جاء في الصفحة الثانية من الغلاف بجمل تعتبر كرسالة للمتلقي، تقول: " **عن الحقيقة البيضاء للبيضة**

عن سين من نسل حمد عن محمد من أم هجرس أنها قالت لابنها:

(هات من يقرأ ويفهم)

فلمن يقرأ ويفهم .... فقط وإذا فقط... هذا الكتاب"[10].

في هذا المقطع تحدٍ صريح ترسله الكاتبة في شكل رسالة عن حقيقة كل شيء دار قبلنا وما زال ممتداً فينا، أم عن عن، أو العنعنة فهو الموروث من العادات والتقاليد البالية، وكل القيود الوهمية التي يظنها الكثيرون مقدسة كيف تتناقلها الأجيال كحمل ثقيل؟، أم نهاية المقطع من استهلالها هو رسالة تحث على المعرفة وإدراك حقيقة الأمور، وجزؤها الأخير **فلمن يقرأ ويفهم .... فقط وإذا فقط... هذا الكتاب.** رسالة استفزازية للمتلقي أو مجتمع القراء تقّر فيها بأن نصها ليس بالسهل ويحتاج القارئ النموذجي أو الخبير.

أما مراحل القمع للمرأة التي رصدتها بن شتوان فقد جاءت متسلسلة بالحدث لا بتواريخ محنطة في وثيقة.

وبداية؟ لأن الاستبداد نقيض الحرية تذكرك الكاتبة بمهد المساواة التي سنها سيد الأنبياء بين الرجل والمرأة إذ يقول الراوي " **طلب آدم من حوائه استخداماً عادلاً للثديين كي**

تسود روح المحبة والسلام بين الذكر والمولودة الأنثى، وتقتل مشاعر الأنانية والاستحواذ وحب التملك وقد يشب عليهما أحدهما"[11]، هكذا جُبل الإنسان على الخير والعدل والمساواة، ولكن انحرف عن ذاك المسار مبكراً وسكن الشر غياهب نفسه وفرق بين الذكر والأنثى باعتبارها مخلوقاً ضعيفاً، فالكاتبة تضع ثيمة شيئية المرأة نصب أعين القارئ منذ بداية النص حتى نهايته. بدءاً بقضية (**وأد البنات**) إذا نميز الصوت الأنثوي في النص في قولها: **"حفروا بالأيدي قبل اختراع المغارف والفؤوس والملاعق ليطمروا حواء ذات النسخة الأرضية، مبقين على بضع حاءات للتناسل والاستمتاع، كانوا أربعين وتسعاً وتسعين نعجة على نحو من التقريب"**[12]، هكذا كانت البداية مع حواء الأولى في تلك الحقبة الجاهلية حواء الأرضية الضعيفة لم تملك أسلحة معنوية أو بالأحرى علمية كي تجابه جهلهم وقوتهم، فكانت قريبة من الأرض في مجتمع بِكر طمسها مبكراً، أما الأخريات اللاتي نجون ربما ينتصر رحمهن بإنجاب الذكر أرث الإرث، ولا تكتفي الكاتبة في استدراج التاريخ في حلبة النص " **في الحفر الثاني حفروا مع بعضهم البعض؟ لأن الرجل الذي أنجبت له بنتاً، كان بلا يدين"**[13] بهذا وذاك تصور بشاعة المشهد عن تحول المرأة إلى مجرد شيء والاستغناء عنها أمراً هيناً، " **أصابعهم متسخة بالتراب على الدوام ورائحتهم كلها موت"**[14]؛ ولأن الكاتب ابن عصره وكل ما يكتب هو إسقاط على الواقع في بعضٍ من أحداث الرواية التي رصدت العصر الحديث تُدين فيها الرجل بالخطيئة وأن الجينات مازالت مسيطرة فنرصد ديالوج يحاكي الواقع " **تنكر لمعروفي حينما قلت له إن (الحاجة الساكتة) ولدت له بنتاً.**

قال بغضب وهو يقفل الباب خلفه بقوة:

(الله يبشرك بطلاقك، وطلاق أمك).

(...) تصوري أن جد والده أيام الجاهلية الثانية دفن ابنته حية، ثم ذهب في المغرب ليستخرجها فلما قيل له لماذا (يا بو دحقلة)؟ قال لهم وقد تداخلت (فيوزاته): ليس عندي بنات يبتن خارج!! جن المجنون والله مثل جده الأول بسبب قدوم البنت السادسة!!"[15]. وكأن الفكر سرمدي حيال الأنثى؛ لأن هيمنة الرجال تبعية النساء المصاحبة لها راسخة قبل نشوء المجتمعات الحضرية، بمعنى أن الإسلام جاء وحرر المرأة وأعطاها هالة من الاحترام، ولكن لن تتغير المفاهيم في عقلية مجتمع العصبية، لهذا أصبحت النساء ضحايا قوانين وعادات قامعة وضعتها استراتيجيات ذكورية جردتهن من الفاعلية والأهمية باسم الخطاب الديني، هذا ما يؤكده النص" **نتيجة الخوف**

من المجهول وعدم وجود وقت لكل شيء وأدت (احويوة) الثانية والثالثة والرابعة والخامسة....

أما (احويوة السادسة بعد الألف) التي أبقت عليها الرغبة في جسد حمد"[16]، نلاحظ أنّ الكاتبة تستبدل احويوة بدل حواء؛ لأنها مجرد شيء بالنسبة للرجال.

المرأة كائن بلا كينونة:

في المجتمع العربي المحكوم بهاجس السلطة ينشأ نظام يسمى بنظام تفاضلي القيمية والإنسانية، وهذا التفاضل تسانده التراتبية التي تقوم على التفاضل الإنساني، لازدرائها مبدأ المساواة في إنسانية الإنسان، ففي مجتمع العصبية لا يعول الاهتمام على المساواة بين الناس، بل على السلطة التي هي فئة معيار التفاضل الاجتماعي والتمييزي، فالأب في العائلة بما يمثل من سلطة فهو الآمر الناهي ولا سلطة فوق سلطته في هذا النطاق الضيق، فهو يأخذ المرتبة الأولى من حيث التفاضل، في القيمة الاجتماعية والإنسانية، بينما تأتي الزوجة والأبناء الذكور في المرتبة الثانية من حيث التفاضل التميزي، وفي البيئات الشديدة التخلف يأتي الأبناء الذكور قبل الأم؛ لأنها أنثى[17]، فهي أينما كانت حبل العبودية يطوقها كما تصفها بن شتوان " **عندما نجت من تراب أهلها.... كان تراب آخر ينتظرها عند سابيها..**"[18]، هكذا ترصد الكاتبة مراحل الاضطهاد للجسد الأنثوي الذي يتغير شكله وطريقة ممارسته مع مرور الزمن.

أما قتل كينونة المرأة بقضية أخرى وهى (**زواج القاصرات**)، تصور الرواية مدى الأذى الذي يلحق بالفتيات في مجتمع العصبية وكيف يتصرف بهن الأهل دون أخذ رأيهنّ. لهذا نجد احويوة أحد شخوص الرواية تزوجت للمرة الثانية وهى لم تكمل العشرين من عمرها: **"ثم زوجت قبل أن يدرك حسين أنها أمه فهو في ازدحام الصغار حوله يظنها إحدى أخواته، كثيرون في مثل ظروف حسين وظروف احويوه يتم التصرف بهم قبل بلوغ سن الإدراك"**[19]، ثم في مشهد آخر يوضح بشاعة القضية أكثر بأنه لا فرق بين الختان وزواج القاصرات اللائي جسدهن لم ينضج بعد(**عويشة**) الفتاة التي سحقتها سلطة البطريركية طفلة تعلب لم تعلم أن ذاك الغناء الصاخب والزغاريد في بيتهم ذاك اليوم لأجلها، **"لم تتمكن عويشة حتى مص ريقها، العبرات تخنقها؛ لأنها ستفارق عرائسها"**[20]، وفي اليوم الثاني من زواجها أُحتفي بها في بيت أهل زوجها أقاموا ختاناً للأطفال الذكور، تأتي من خلاله الكاتبة بمشهد مؤلم يدين ذاك المجتمع القامع: **" كانت**

عويشة منكمشة على نفسها، لأن ما جرى للصغار جرى لها الليلة الماضية شيء شبيه به إنما بمقص غيري حديدي، ظلت تضمد مكانه إلى الصباح"[21].

ومن الثيمات التي أخذت جزءاً كبيراً من النص قضية التمييز الجنسي الذي رصدته الكاتبة عن التفرقة بين الذكر والأنثى في مجتمعا، لأن في مؤسسة الزواج، يطور التمييز الجنسي بمبادئه المميزة مثل السيطرة والتحكم أبعاداً وبُنى أخرى ضد المرأة، فبالإضافة إلى تبعية النساء هناك قضايا التناسل ومبدأ الذكر الأول. فالأول يعني أن المرأة تحمل وتلد الأطفال، والأخير يتضمن أن الأطفال يجب أن يكونوا ذكوراً لضمان إعادة إنتاج البنية التناسلية، وفي حالات كثيرة تعد المرأة العاقر التي لم ترزق بأطفال ذكور موضع ازدراء المجتمع[22]، فيترتب على ذلك في وضع المرأة موضع عار على أسرتها و مصدر نكسة لزوجها لذلك الجنين الراوي يصور مشاعر الأب " **قد كبرت على ما يبدو وحتى على حبة القلب لم يمكن لها احتواء حجمي، فالقلب فرفة يضيقها الليبيون لتناسب أبناءهم الذكور، ويمنع دخولها على الإناث، القلب في ليبيا غرفة قياس مخلوقات ذكورية لا يناسب حجمها حجمي"**[23]، وبهذا تكشف النقاب عن الثيمات وتحفر في الذات المقموعة، وكيفية تناسل الاستبداد من سلطة الأب حتى وصوله أعلى مراتب السلطة في الدولة

ومن التمييز الجنسي تطرق باب التمييز العرقي داخل مجتمعنا وتحفر في جذوره حتى تصل التمييز الطبقي فتقارن بين الطبقة الحاكمة والطبقة العاملة تبحث في المنسيين والمهمشين وإعلان اضطهادهم فوق أرض عائمة بالزيت الأسود كما يصفها الراوي يستبق الحدث لمولود سيأتي ليبيا" **ريثما تولد... الناس يعيشون فوق بقعة كبيرة من زيت الحجر، يمنون أنفسهم بالعيش الرغد والرغد وبالزوجات المتعددات وبالسيارات الأمريكانية(...) ولا يصحون من الحلم العمومي الطويل لكي يحذروك منه إلا بعد تكون قد تورطت فيه ولطختك بركة الزيت بسوادها من رأسك لقدميك"**[24] رصد الواقع الذي مر على الليبيين حول نقمة النفط منذ اكتشافه إلى اليوم، الذي سيظل قوتا لغيرنا والحُبلى به أرضنا، فكان نصيب الليبيين من ذاك الزيت المطمور الانقسام والصراع والضياع. ونجدها في ذات المحور تنفتح على قضية ما يفعله الكبت المكظوم من استبداد الحاكم على أصحاب الطبقة المتدنية والمطحونة إبان النظام السابق في ليبيا.

وبهذا وذاك نجد النص يكتظ بالكثير من القضايا المجتمعية التي سرعان ما تتنبه لها وأنت تتابع الحدث وهذا ما يميز نتاج المرأة الروائي" كمساهمة فنية راقية في طرح

قضايا المجتمع ومعالجتها، وهو إذ يعالج قضايا المرأة لا يعالجها كقضايا ذاتية سجينة في فئويتها، بل يعالجها كقضايا اجتماعية تتحدد في إطار العلاقات والمفاهيم الاجتماعية، ويظهر ما فيها من خصوصية، على أساس هذه العلاقات والمفاهيم وبسبب منها، وعلى أساس طبيعة المرأة أو بسبب منها"[25] وفق هذا المنطلق نحلل نص وبر الأحصنة الذي جعلته خلفية لقضايا مهمة التي تسعى لتغييرها والتطلع إلى تغير الواقع فمن خلال الرواية تتطرق إلى إشكالية العملية التعلمية في ليبيا من سبعينيات القرن الماضي حتى بداية القرن الحالي.

وفي نافلة القراءة نؤكد أن الراوي الذي نسج خيوط الحكاية أو الذات السارده في رحم الأم التي تسميها حاملتي طوال الرواية ما هي إلا الكاتبة ذاتها التي سلكت مسلكاً مختلفا فكرياً مما جعل هوة بينها وبين العامة من أفراد المجتمع والذي تعيش داخل نطاقه غربةً واغتراباً في آن الذي ترصده في الكثير من المشاهد ومنها" **ارتطمت في طريقي للأسفل بفرد قديم يهرب من شيء بيّن، سألته عن السبب فأجابني على عجل:**

ـ أفتش عن نفسي بعيداً عن المكان الذي وجدت نفسي فيه"[26]، ذاك الاغتراب المطحون تعانيه الكاتبة أليس الرحم المكان المظلم ضيق الأفق؟ هو ذاته المجتمع المنغلق الذي تكبله قيود قديمة منذ الجاهلية الأولى وتطوقه جبرية اجتماعية، وسلطة سياسية تدعمها سلطة دينية، وسلطة ثقافية تبيح ما تراه يناسب الأيديولوجيات المطروحة، ومع ذلك يتمرد الفن بصوت الأنثى ليرصد القضايا ويحفر في جذورها لخلخلة الراكد والرتيب.

الخاتمة:

الرواية النسوية الجنس الذي يستلهم من الواقعية مادة مضمونه هي بمثابة الوعاء الذي يتسع لتقديم كون مصغر يحاكي قوانينه الكون الأكبر الذي نعيش فيه.

وبر الأحصنة للكاتبة الليبية **نجوى شتوان** جاءت على مجموعة ثمانية عتبات في 198صفحة تختزل تاريخ العرب منذ مهده وكيفية انعكاسه على واقع الإنسان الحديث والمعاصر كأنها تقول لكل السلطات التي هاجسها السلطة لذاتها هذه بضاعتكم رُدت إليكم، وهذا ما جاء في الكتاب المقدس ما تناوله المؤرخون عن خطاياكم الملطخة بها ايديكم.

أما عن الزمكان فالرواية احتضنت الكون كله زمكانياً فكان المكان يتأرجح بين الكون الفضاء الجغرافي المفتوح، والمكان المنغلق الذي جسدها الرحم الضيق الذي أعطاه

الكثير من الألفة والرتابة وكذلك قوقعة الشخصية حول ذاتها، أما عن الرؤية السردية جاءت (الرؤية من الوراء) وبذلك الراوي يعلم أكثر مما تعلمه الشخصية، وبهذا غلب عليها الأسلوب المنولوجي.

أما عن الثيمات جعلت النص حلبة تتصارع داخلها قضايا جوهرية من المسكوت عنه لا المفكر فيه، باحثة عن حرية المرأة وحرية كل المهمشين، ورافضة الرقابة عن كتابتها وأطلاق العنان لمكبوتاتها، متجاهلة الموروث المتراكب والمتراكم، مما جعل نصها ينفتح على العالم الآخر بالتلوين الأجناسي من الشعر العربي والغربي والغناء الشعبي والميثولوجيا.

وأخيراً ارتأينا من خلال العرض السوسيولوجي لثيمات النص أن نوضح قدرة الرواية النسوية وإسهامها في بناء الإنسان داخل المجتمعات، وتمكنها من الوصول إلى العوالم السرية للإنسان، فالكاتبة تجابه البنية الفكرية القاصرة، محاولةً الانفلات من قوقعة استهلاكية وشيئية المرأة، وتحولها من المفعول به إلى الفاعل المنتج للنص المنتصر للقضايا الإنسانية. فالمرأة الكاتبة أقوى مما تظن هي نفسها، وأكثر مما يظنه الآخرون.

الهوامش:

1- رشيدة بن مسعود، المرأة والكتابة سؤال الخصوصية ـ بلاغة الاختلاف، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب ط2، 2002، ص76.
2 ـ ينظر: هناء علي علوان القنصل، السرد النسائي في الرواية الليبية دراسة في الأدب الليبي، مجلة البحث العلمي في الآداب جامعة عين شمس، العدد التاسع عشر 2018، ص2.
3- السيد ياسين، التحليل الاجتماعي للأدب، مكتبة مدبولي القاهرة، ط 2، 1992 ص32.
4 ـ نجوى بن شتوان، وبر الأحصنة، نصوص في التكوين والنشأة، مركز الحضارة العربية القاهرة، ط2، 2007، ص7.
5 ـ المصدر نفسه ص 35.
6 ـ المصدر نفسه ص، 35-
7. المصدر نفسه، ص 81 -82.
8- المصدر نفسه، ص81.
9 ـ هدى رجب العبيدي، فاعلية شعر الرفض والتمرد أمل دنقل ـ عبد الرؤوف بابكر السيد، دراسة أدبية نقدية موازنة في ضوء منهج التحليل الفاعلي، الدار العربية للنشر القاهرة، ط1، ص85.
10 ـ نجوى بن شتوان، وبر الأحصنة، ص1.
11 ـ المصدر نفسه ص9.
12 ـ المصدر نفسه، ص19.
13 ـ المصدر نفسه، ص19.
14 ـ المصدر نفسه، ص19.
15 ـ المصدر نفسه، ص160.
16- المصدر نفسه، ص21.
17. ينظر: عبد العزيز قباني، العصبية بنية المجتمع العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت 1997، ط1، ص110.
18- نجوى بن شتوان، وبر الأحصنة، ص20.
19- المصدر نفسه، ص23.
20 ـ المصدر نفسه، ص48.
21 ـ المصدر نفسه، ص85.
22 ـ ينظر، إرنست إيمنيونو، قراءات في أعمال نوال السعداوي، ترجمة سها السباعي، المركز القومي للترجمة القاهرة 1917. ص167.
23- نجوى بن شتوان، وبر الأحصنة، ص171.
24- المصدر نفسه، ص 117.
25 ـ رشيدة بن مسعود، المرأة والكتابة، سؤال الخصوصية، بلاغة الاختلاف، ص77.
26 ـ نجوى بن شتوان، وبر الأحصنة، ص 58.